

كان فلاسفة اليونان ومفكرو الاغريق يتقدمون في مختلف عصور الفلسفة ومراحل تطور الفكر ان الفضيلة ما هي الا تحقيق الطبيعة البشرية والصمود بها الى الكمال ولكنهم اختلفوا في المنهج والغاية والفهم

الفسطاطية والطبيعة البشرية

بقلم عبد العزيز محمود

غير المكتوبة التي تستمد حمايتها من تألب شعور الجماعة على من ينتهكون حرماها» وهذا الاحترام الذي يقرره بركليس ليس فرضاً تختمه القوة ، وتوجب طاعته ولكنه احترام في جوهره طاعة عن حرية واختيار . هل

تكون الطاعة خضوعاً لطبيعة القوة ؟ أم حرية في طبيعة النفس ؟ أم رغبة في تحقيق العدالة ؟ ثمة تضارب في الآراء حول هذه المشكلة وعلى صخرتها ترتطم التيارات الفكرية في المذاهب .

فالحكام اليونانيون قد هدفوا بحكمتهم تكوين مجتمع صالح تسوده العدالة ووجرت حكمهم فوجد التناسب في الفكر والحياة حتى يسود المجتمع اعتدال . فالحكمة القائلة : « خير الامور اوسطها » تمثل هذا الضرب من التفكير الذي ينشر العدالة والمساواة

ولكن ما هي العدالة ؟ هذا هو السؤال الذي طرحه سقراط على الاثينيين كما نرى في بداية « الجمهورية » . ولكن سقراط لم يحل المشكلة حلاً واقعياً لانه كان مهتماً بالتعريف ، وكان المجتمع اليوناني في واقعه الاجتماعي والسياسي يجري على سنة اخرى . لهذا أخذ المجتمع اليوناني نفسه يناقش المشكلة ليفسر مضمون الطبيعة والعدالة والطاعة والقانون . ومن ثم تميزت الفلسفة اليونانية وتشعبت الى فلسفة مادية واقعية ، وفلسفة روحية مثالية .

في غمرة هذا الصراع الفكري ظهر السفسطائيون في المجتمع الاثيني معلنين حقيقة الانسان . وكانوا بطبعهم يميلون الى الجدل ، ويحذقون فن الخطابة وصناعة البيان ، فأذى بهم ذلك الى مشاركة الناس الرأي ، يقارعون الحجة بالحجة حيناً ، ويعتمدون على البيان والعبارات الضخمة حيناً آخر . فساقهم هذا الى التعرض لنظريات الاخلاق والطبيعة البشرية وأرادوا أن يظهروا حقيقة الانسان ، ويكشفوا عن جوهره لا من ناحية الخير فحسب بل من ناحية الشر ايضاً . فكما توجد الفضيلة توجد الرذيلة ، وكما أن هناك عدلاً فهناك ايضاً ظلم ، وإزاء الحق يوجد الباطل .

إعتمد السفسطائيون إذن على الخطابة وسيلة لاقتناع الناس وبث الروح الفكرية الجديدة فيهم ، وانتشروا في بيوت الاغنياء والاسواق والميادين يعلمون الناس هذا الضرب من التفكير الذي ينادي بتفهم الحقائق كما هي لا كما نريدها . فعين صرخ السفسطائيون في المجتمع القديم بكلمة « الانسان » كانت تلك الصرخة بمثابة تجربة لتطوير الفلسفة اليونانية من مجاهلها

فتباينت آراؤهم ، وتشعبت الى تيارات تلاءمت مع طبيعة المجتمع وظروفه السياسية ونموه الثقافي في كل مرحلة من تلك المراحل .

فهل تلزم للطبيعة البشرية عدالة في النفس وعدالة في المجتمع تتفق والمعادن او التقاليد لكي تخلق أنظمة وقوانين تنظم شئون الجماعة ، ويخضع لها الافراد ؟ أم انه يلزمها قانون طبيعي لا يخضع للتقاليد بل يقضي عليها ويكون هو تقليداً جديداً للفرد في تعامله مع الافراد ؟

نستطيع ان نقول في هذا الصدد ان الفكر اليوناني كان يتطور حسب ما يتحقق لهذه المشكلة بشطريها في الاحوال الاجتماعية والسياسية من سيادة او ترجيح شطر على آخر وكان الصراع على اشده بين الاجركية والديموقراطية وكانت الحرب تنشب في كثير من الاحوال بين المدن كحرب طروادة واسبرطه والبيلوبونيز . وبين هذه التيارات والتقلبات كانت تخنفي العدالة وكانت تظهر . وكانت تتلاشى قوانين السلوك والاخلاق لتطغى قوانين القوة الفردية . ومن ثم تضادت مصلحة الفرد مع مصلحة المجموع .

ولكننا نجد في عصر بركليس ملامة الى حد ما بين الطبيعيين . فان المجتمع الاثيني قد ازدهر ازدهاراً رائعاً في هذا العصر لانتشار الروح الديموقراطية واتساع الادراك لهدف التكامل الاجتماعي ، والميل الى احترام القوانين التي تسعى لتنظيم المدينة والرفعي بها . ومع ذلك فاننا نرى ان الفرصة كانت مهيأة للرجل الممتاز الذي يظهر مواهبه في مجال الزعامة والقيادة ومن ثم تميزوا عن الشعب ، وقبضوا على السلطة ، واخذ الافراد يدينون لهم بالطاعة . وبركليس نفسه مثل لهذه الفردية الممتازة الطاغية . فاذا كانت اسبرطه مثلاً قد زعت الى التربية الفردية لتخلق الانسان القوي الذي يتمتع على الشجاعة في نيل حقوقه ، فان مدينة كاثينا قد وجدت في القانون قوة يتمتع عليها ووسيلة لتوفير العدالة وضمان الحقوق . وهذا يبين لنا مدى التمازج والتقابل بين الطبيعة والقانون . ويقول بركليس منوهاً بقدرة الاثيني على التكيف ومنهدداً بالنظام الاسبرطي العسكري : « اذا كان اهل اسبرطه يدرّبون النشء منذ حداثتهم المبكرة لتدريبات دقيقة قاسية ترمي الى جعلهم شجعاناً ، فاننا نحيا حياة سهلة ولكننا على الرغم من ذلك على استعداد مثلهم لمواجهة المخاطر والخطوب التي يواجهونها » .

تباينت السيادة إذن للتقاليد والقوانين في عصر بركليس فكانت رمزاً للطبيعة البشرية ، وعاملاً من عوامل الصواب فيها ، يدلل على ذلك قول بركليس : « لانا ليمصنا من الخطأ احترامنا للسلطات والقوانين ، وإجلالنا الخاص لما تكفل منها بحماية المظلومين ، واحترامنا كذلك للقوانين

١ تطور الفكر السياسي ص ١٦ جورج سباين . ترجمة حسن

جلال العروسي .

١ نفس المرجع : ص ١٩ .

الطبيعي الى وجودها الانساني وكانت خطوة لتمجيد الذات، وتمكين العقل من تثبيت كيانه ، فقد كان العقل شاردًا عن حقيقته ، متوغلاً في الوجود ينقب عن الفن ، ويبحث عن السبب بينما هو لم ينقب عن ذاته وجوهره ، ولم يبحث في حقيقته وطبيعته ، ولم يكشف عن الحدود التي ينتهي اليها امتداده ، فضل العقل في الصحراء المعتمة ، وتاه في الارض التي يعلوها الضباب . كان ظهور السفسطائيين إذن ضرورة اجتماعية أوجبها تطور الفكر وتعاقب الاحداث ، واحتدام الصراع ، ورغبة الشعب في التعليم لكي يدافع كل فرد فيه عن نفسه . وما لبث السفسطائيون حتى قادوا الجماهير نحو غايتهم الى ان تعرض لهم سقراط ، وأندى يناقشهم فاختلف تفسير كل فريق حول مشكلة الطبيعة البشرية .

كانت مهمة السفسطائي أن يعبر عن الروح الجديدة والفكر الجديد الذي ينزع الى الحرية ، ويمجد الانطلاق ، ويسير إلى الغلبة والفوز والقوة . وكانت هذه الروح قد بدأت بفضل الافكار التحررية التي تهدف الى اعلان قوة الانسان وذلك في الاعمال الادبية والحطبة السياسية ، والمناقشات الجدلية ، والمجالس التشريعية ، والثورة على التفكير الشيولوجي المتمثل في عبادة الابطال والآلهة في ميثولوجيا هوميروس وهزويد . فترى سوفوكليس مثلاً يقول في مسرحية أنتيجونا: « الانسان من بين الاشياء القوية اقواها جميعاً . لقد علم نفسه الكلام ، والتفكير السريع . وسكنى المدن »^١ تغلغل السفسطائيون ليبنوا هذه الروح وينشروا هذه الافكار، ويربوا الامة لكي يخلقوا في طبيعة كل فرد ارستقراطية تقوم على اساس من العقل تهدف الى الغلبة والقوة لا ارستقراطية متوارثة تقوم على أساس من العصبية والدم . فكل فرد الحق في السلطان ولا بد أن يكون قوياً لينتزع حقه فلا يهضم فيه . فالنزعة السفسطائية من هذه الوجهة تتشابه مع النزعة النيتشوية في العصر الحديث . والفلسفة السفسطائية التي تتخذ الانسان موضوعاً لها تهدف الى اعلان شأن هذا الانسان حتى تكون السيادة لطبيعته البشرية . واذا كانت الفردية قد

١ ارجع في هذا الصدد كتاب « سبين » للسالف . وكتاب : « فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط » المحاضرات الخاصة بالسفسطائية : للدكتور أحمد فؤاد الأهواني .

سادت التفكير السفسطائي فان الزم ما يكون للفردية شخصية قوية يتحقق فيها مضمون هذه الفلسفة التي تجسد قوة الذات ، وحرية الطبيعة البشرية في التصرف .

واذا كان السفسطائيون قد عدوا متطرفين في العصر القديم ، فان « هيجل » في العصر الحديث قد حمل لواء الدعوة التي مجدت السفسطائية واعتبرت عصرهم عصر تنوير وانطلاق . كانت غاية الفلسفة السفسطائية اعلان وجود الانسان وفهمه على انه المثل الاعلى والحقيقة التي تتسع فتشمل مفاهيم الحياة كما انها فلسفة تعبر عن طبيعة القوة التي تميزت بها بعض المدن اليونانية والتي نادى بانسانية الانسان ووجود ذاته .

لقد انكر السفسطائيون الميتافيزيقا ونظروا الى الوجود الطبيعي من خلال الوجود الانساني فتغير فهم الطبيعة بهذه النظرة ، واستطاع الانسان ان يصل الى معرفة واقعية أفادت التجربة والعلم ومن ثم قويت سيطرة الانسان على الطبيعة فاتسعت مداراتها ، ولولا ذلك لظل الوجود الطبيعي مجهولاً او بعبارة اخرى لظل معدوماً معدوداً في دور الفناء .

ونحن في العصر الحديث نجد « كانت » الفيلسوف الالماني يصل الى الذروة في هذا المضمار، حين يقرر صراحة ان الوجود الخارجي معدوم بل هو في انفسنا ولا شيء غير ذاتنا الانسانية . هذه الدرجة الكبيرة من التجريد وتخليد الذات البشرية ، نستطيع ان نصل الى جذورها في الفلسفة السفسطائية وفي تفسيرها للطبيعة البشرية . فالسفسطائي يفهم الطبيعة البشرية على انها قوة او قانون طبيعي هو الذي يسود الوجود، مع الفارق بين قانون يخلقه بنفسه ليتخذه وسيلة لغاية يرمي اليها ، وبين قانون مفروض لا يخضع له ولا يدين بالطاعة فالانسان في رأي السفسطائيين هو الحقيقة ، وهو القانون ، وهو القوة التي تسعى لتمجيد نفسها . وحول هذا الانسان تدير امور الحياة ومن طبيعته تفهم طبيعة الوجود . ولقد عبر عن هذه النظرية بروتاجوراس في عبارة جامعة : « الانسان مقياس الاشياء جميعاً : هو مقياس وجود ما يوجد منها ، ومقياس لا وجود ما لا يوجد » ويجعل جورج سبين وهو بصدد تفسير هذه العبارة جانبيين للفلسفة السفسطائية : جانباً ايجابياً هو « الانسانية » إذ تتخذ الانسان محوراً للمعرفة ، وجانباً آخر سلبياً هو شكلها في المذهب الطبيعي القديم . ويعترف جورج سبين كذلك بانها « نجحت في

المجاد ضرب جديد من الاهتمام وخلق اتجاه جديد .

وعلى هذا النحو بدأ السفسطائيون يشورون على القوانين ويتمردون على التقاليد لأنها تستعبد الانسان . والانسان مزود بطبيعة حرة متمردة متفوقة ، فكيف تتفق وتلك القيود من القوانين ؟ ان مصلحة الانسان فوق هذه القوانين لانها تحد من سلطانه ، وتكبل غرائزه ورغباته . لذلك وجب عليه ان ينشد القوة ليطلق لغرائزه وشهوته العنان وليحقق مصالحه واهواءه « فالعدالة للاقوى » وبغير القوة لا توجد عدالة . من ثم نشأ التعارض الهائل بين الطبيعة والتقاليد وبالتالي نشأ العراك الفكري بين السفسطائيين من جهة وسقراط وافلاطون وأرسطو من جهة اخرى .

كانت الطبيعة عند السفسطائيين قوة بل هي ألوهية الانسان . وفي ذلك يقول أنطيفون : « الانسان كما يقولون أعظم الحيوانات الوهية » وكان كباقي السفسطائيين يرى ان شرائع المدينة وقوانينها تقوم على الظن لاعلى الحقيقة . لذلك دعا الى مناهضتها لانها تعارض طبيعة الفرد القائمة على اساس من القانون الطبيعي . فالفرد هو كل شيء . . هو المقياس ، هو الحقيقة . والذي يريد السعادة وبيئتها يجب ان يقتنيها في الذات قبل ان ينصرم اجله القصير .

بهذا المنطق سارت الفلسفة السفسطائية نحو غايتها وفي طريقها المرسومة دون ان تقيم لغير منطقها وزناً ، ودون ان تلتقى على غير حججها بالأ . ولقد بلغت الفلسفة السفسطائية اوجها عند زعيم من زعمائها هو « جورجياس » الذي كتب افلاطون عنه محاورته المعروفة .

وتعد آراء جورجياس أعنف الآراء تطرفاً في فهم الطبيعة البشرية . وفي مذمبه تتعارض الطبيعة البشرية مع القوانين والتقاليد بل تقف امامها وجها لوجه ، وعلى طرفي نقيض . فجورجياس هو القمة الشاخنة التي ارتفعت فوقها ألوية الفلسفة السفسطائية ، ودوت ابواقها لتعلن : القوة فوق الحق ذلك هو القانون ، وتلك هي الطبيعة .

ونحن الآن في العصر الحديث ندرك مدى الخطورة الكامنة في هذه الفلسفة وخاصة بعد ما اعلنت كما يقولون حقوق الانسان ، وبعد ان شاع المبدأ الضخم بعد الثورات الهائلة : الحق فوق القوة . ولكن جورجياس يخالف هذه

١ يراجع في هذا كتاب الدكتور الأهواي السالف الذكر

القضية ويرى فيها وهماً حققه الخيال ، وظناً ليس للواقع اليه من سبيل . فابن الانسان الذي ارتفع عن مرتبة العبودية ولم يظلم أخاه الانسان ؟ ولو ان هذا المظلوم قاوم بقوته لنال بهذه القوة حقه المعصوب .

وابن القوانين التي ارتفعت عن الاهواء والغايات ؟ فكيف تخضع للقوانين وهي لا تحقق من العدل شيئاً ؟ فجورجياس يرى ان القوة وحدها هي العدل ، وان الشهوة دون سواها هي الحياة . « فالحياة الانسانية مظهر لتغلب الاقوى وهذه هي الحالة الطبيعية للانسان » . فهذا المذهب هو مذهب ارادة القوة عند نيئشه في العصر الحديث كما سبق لنا القول ، وهي فلسفة تتمثل فيها الرغبة في التفوق والمتعة والانغماس في اللذات والشهوات .

والانسان القوي هو الوحيد الذي يستطيع ان يدير دفة الامور وان يسوس الرعية سياسة رشيدة لانه وحده الذي يفهم هذه السياسة ويعرفها .

ويرى جورجياس انه لا بأس من استبداد الحاكم ما دام يحقق مصالحته ورغبات شعبه . فليس في مصلحة الحاكم تعارض مع مصلحة الشعب وكما من حكام مستبدين حققوا السعادة والعدل للشعوب . . ومن صفات الحاكم القوي ان يكون مقداماً وان يكون شجاعاً ومنافعاً نحو ورغباته . فهذا الاندفاع هو رمز القوة وليس الضعف سبيلاً الى السياسة الحازمة . فائينا قد ازدهرت تحت ظل حكم بركليس وتحقق فيها الرخاء وارتقت حياتها الاجتماعية . « فطبيعة الحياة : نزوع ورغبة وشهوة وقوة تدفع الى تحقيقها ليلبغ الانسان غايته وسعادته^٢ » هذه هي نظرية جورجياس . ولكن سقراط يرى ان السعادة لا تتحقق الا في التأمل ، ولا يكون الفيلسوف كذلك الا اذا عرف نفسه ، ومعرفة نفسه يتطلب صفاءها عن طريق التأمل والزهد .

ويرى افلاطون رأي أستاذه . فالسعادة عنده في التأمل والتفكير .

والاعتدال عند ارسطو هو السعادة . والفضيلة هي الوسط العدل بين الافراط والتفريط .

١ المرجع السابق ، المحاضرات الخاصة بالسفسطائيين

٢ المرجع السابق ، المحاضرات الخاصة بالسفسطائيين

وهكذا عارض فلاسفة أثينا الكبار نظرية جورجياس ،
و حاربوها محاربة شديدة .

ويعرض أفلاطون مذهب « جورجياس » في المحاوره الموسومة باسمه .
فبين التعارض الذي أشرنا اليه بين الطبيعة البشرية بفطرتها وبين واجبات
الشرية الاخلاقية والاجتماعية . فيقول على لسان كاليكليس Calicles الذي
كان تلميذاً لجورجياس : « إن الطبيعة والشرية في تناقض دائم ، ففي حكم
الطبيعة ليس أسوأ ولا أشد خزيًا من أن تخضع للظلم ، وفي الشريعة من
أن ترتكبه . ولكن الخضوع للظلم ليس من خصائص الرجل بل العبد الذي
يفضل الحياة على الموت . ومن ثم أرى أن جبهة الضمءاء من الناس هم
الذين يضمنون القوانين لأنفسهم ومصالحهم . وهم يخشون الرجال الاقوياء
الذين يستطيعون أن يتغلبوا عليهم كما أنهم يمنحون الثناء واللوم لأنهم يحبون
المساواة ، لهوانهم . وإذن فالخزي والظلم في الشريعة هما الاسراف في
السلطة ، وأما الطبيعة فحديتها الخاص هو أنه من العدل أن يتغلب الاحسن
على الاسوأ والاقوى على الاضعف . ومن الواضح ان هذا هو السائد
بين كل الحيوانات وكل المدن وكل الاجناس البشرية » ١ . فهذا النص الذي
يورده أفلاطون في محاوره جورجياس يبين لنا جوهر مذهبه ، ويوضح
حقيقة فلسفته . فالطبيعة هي القوة . والقوانين مخالفة للطبيعة . وحق السلطة
يجب أن يكون للقوي لا للضعيف الذي يدعي القوة باسم القانون .
والعدل كل العدل أن تغلب الاحسن والاقوى وأن تعطيه السيادة والحكم .
ثم يقول أفلاطون على لسان كاليكليس ايضاً : « إن الخير الطبيعي والعدل
الطبيعي هما بكل صراحة أن نعيش تاركين لرغباتنا العنان على نحو تبلغ معه
أقصى قوة مستطاعة وأن يشبع الفرد تلك الرغبات بفضل شجاعته ... وهذا
ما يستحيل على السوقة ؛ ومن ثم يعلنون أن الاسراف عيب وذلك لخزيهم
ولرغباتهم في أن يخفوا ضعفهم ... وإذ يقدم الحكيم عن أن يشبعوا
رغباتهم ، تراهم يتدحون الاعتدال والعدل ، ولكن هل هناك ما هو أشد
خزيًا من الاعتدال لأولاد الملوك ... ولأولئك الذين يستطيعون أن
يرتقوا الى السلطة والى الاستبداد؟ في الحق يا سقراط أن هذا هو الواقع
ما دمت تدعي متابعة الحقيقة . المتع والحريه وعدم الخضوع لقاعدة : هذه
هي الفضيلة والسعادة وما دون ذلك ليس إلا دخيلاً على الطبيعة وحمالة بشرية

١ راجع محاضرة الاستاذ إميل برييه عن الفلاسفة اليونانية . وهي من
ضمن محاضرات اشترك فيها مع بوجليه وغيره في كتاب : « من الحكيم القديم
إلى المواطن الحديث » . ترجمة الدكتور مندور .

سعيد فياض

عبيد

ديوان شعري يسمو الى ذروة الفن
وينتزع النغم الخلو من اجواء الابداع
في جميع المكتبات العربية

لا أكثر » ١

فن هذا النص نتبين أيضاً أن جورجياس يرى الخير الطبيعي والحق
الطبيعي في ترك العنان للفرائز والنزوع إلى الشهوات لانه في ذلك طبيعة
الحياة . ولا يتأني ذلك إلا بالقوة والشجاعة فليس في ذلك عيب فان
الاعتدال خزي وعار ، والفضيلة هي المتع والحريه وعدم الخضوع لقاعدة
أو قانون ، وما دون ذلك خرافة يتنافى مع الطبيعة البشرية .

ولكن أفلاطون يرد على هذه الاقوال فيرى أن الطبيعة والاخلاق
لا يتعارضان إذا أحسن فهم كليهما واستطعنا التوفيق بينهما . وينادي
أفلاطون باعلاء الفريزة حتى تسمو وتهدف الى الخير الذي هو الكمال لكل
طبيعة بشرية .

« فالعدل : نظام وتناسب واعتدال » تلك هي القضية .
وهذا الاعتدال هو الذي ينسق وظائف الفرائز ومن ثم لا
تستبد غريزة دون أخرى بالانسان . فيظل خيراً لا يهدف الى
الشر . فغريزة القتال والانتصار مثلاً يجب أن توجهها وجهة
نافعة كالذود عن الوطن والحمى ، أو كمزاوله الرياضة ؛ وبذلك
نحقق رغباتنا دون ان نخرج عن طبيعتنا فنشطي في هذا الخروج .
فليس أضر بالانسان من ان تتمرد في نفسه ورغبات وضيمه
هي في جوهرها وحقيقتها ضد طبيعته ، وكبت هذه الرغبات
الضارة عمل على الوفاق بين الطبيعة والاخلاق .

ثم يقول أفلاطون : « لا يجوز أن نسمح لاي قوة من
هذه القوى بأن تفعل ما هو غريب عنها وأن تتطلع الى امور
غيرها . يجب ان نحدد بدقة ما يخص كلا منها وأن نسيطر
على أنفسنا وأن نضع بين هذه القوى الثلاث نظاماً واتصالاً
وانسجاماً . » ٢ هذا هو الاعتدال الذي يقول به أفلاطون
ولكنه كما نرى لا يتفق مع مذهب جورجياس من اية ناحية
بل يتعارض معه كل المعارضه .

فالطبيعة البشرية في رأي السفسطائيين هي طبيعة القوة .
هي الطبيعة التي لا تخضع ولا تلتين ولا تسمح للقوانين ان
تستعبدتها . وهي طبيعة متمردة لا تعرف الاعتدال بل تنشد
القوة والتفوق والامتياز والغلبة والسلطان . وهي فوق ذلك
تنزع الى اللذة والشهوة والى تفهم الحياة بشطريها : خيرها
وشرها .. حقها وباطلها . ثم هي طبيعة تكره الضعف ولا
تعرف الرحمة ولا تتكيف او تتلايم مع البيئه والقوانين
والتقاليد .

القاهرة عبد العزيز عبد الفتاح محمود

١ المرجع السابق ، ص ١٣ .
٢ المرجع السابق .